البيان القرآني: مفهومه ووسائله

عودة خليل أبو عودة*

مقدمة:

يحدد هذا البحث مفهوم البيان، ويفرّق بين المفهوم العام وهو الأساسي، وهو الأصل عند الحديث عن البيان بشكل عام، والمفهوم البلاغي الخاص بعلم البلاغة. ويهدف هذا البحث إلى تقديم هذا المفهوم إلى الباحثين والمهتمين بالدراسات القرآنية والدارسين المختصين، ومِن ثم إلى تعريف الناس، بعامّة، الذين يحرصون على مطالعة الدراسات القرآنية ويتابعونها؛ حتى يقرأوا القرآن الكريم عن بينة، وحتى يستطيعوا تدبر آيات القرآن الكريم؛ تنفيذاً لأمر الله عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤) ولعل أحد هذه الأقفال عدم التمكن من معرفة الوسائل التي بها يفهم القرآن الكريم. ومن الوسائل التي بها يتوصل إلى فهم آيات القرآن الكريم وتذوقها معرفة الأنماط اللغوية المتعددة التي يقدم كل منها جانباً من الدلالة التي يحملها التركيب اللغوي. وسيحتفل هذا البحث بهذه الأنماط اللغوية المتنوعة، وسيقدم نماذج منها تشعر القارئ بروعة البيان القرآني وإعجازه.

فإذا تعرف القارئ إلى الأنماط اللغوية التي بها تظهر ألوان البيان وأسرار التعبير تشكلت لديه مَلَكَةٌ خاصة بقراءة القرآن الكريم، وتمكنت في قلبه الرغبة في تلاوة القرآن الكريم وسماعه.

كثير من الناس يبحث عن شواهد الإعجاز القرآني بكلمة هنا أو تركيب هناك، ويتبادلون ذلك بإعجاب فيما بينهم، وقلَّما يتنبهون إلى السياق القرآني الذي يصنع الصورة البيانية الكاملة. وهذا البحث يعتمد على أن القرآن الكريم معجز كله، إعجازاً مترابطاً في كل أجزائه وسوره وآياته وكلماته. إن أي كلمة في القرآن الكريم عندما

* أستاذ اللغة العربية في جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا، عمان/ الأردن. البريد الإلكتروني: odahabuodoh@yahoo.com

تدرسها في كل مواضع استعمالها تجد فيها الدلالة القرآنية التي اتصفت بها هذه الدلالة، التي تتشكل مع غيرها من دلالات الألفاظ، وإيحاءات التركيب اللغوي، في صورة من البيان، لا تجدها إلا في القرآن الكريم.

أولاً: البيان: أصل المصطلح ودلالته

تحرص الدراسات الحديثة وأساليب البحث العلمي المتطورة على الاهتمام ببيان دلالة المصطلح، موضوع الدراسة، قبل أن تفيض في البحث عنه. فكيف وموضوع بحثنا الآن هو (البيان) نفسه؟.

تطلق كلمة (البيان) الآن فتتوجه الأنظار إلى معنيين أساسيين، هما:

– البيان بمعناه العام، وهو: التعبير عمّا في النفس، أو عما لدى المتكلم أو الكاتب من أفكار ومشاعر بدرجة عالية من الإفهام والتأثير.

– البيان بمعناه الاصطلاحي الخاص الذي تشكَّل عندما وضع العلماء قواعد البلاغة، وجعلوا (البيان) أحد علومها الثلاثة. وعرفوه بأنه: "علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة في وضوح الدلالة على المعنى المراد بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض."[١]

والمعنى الأول هو الأصل، وهو المراد عندما يتحدث الناس عن البيان القرآني، والبيان الأدبيّ، والبيان عن المعاني والأفكار عند كل متحدث أو كاتب. وهو الذي جرت به اللغة العربية في آدابها من شعر ونثر في عصور الأدب المتوالية، وبخاصة ما عرفته في العصر الجاهلي من بيان ساحر وأداءٍ عال. وهو الذي أراده رسول اللهﷺ فيما رواه البخاري؛ إذ قال في باب الخطبة: "حدث قبيصة حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم، قال: سمعت ابن عمر يقول: جاء رجلان من المشرق فخطبا. فقال النبيّﷺ: إن من البيان لسحراً."[٢]

---

[١] طبانة، بدوي. **معجم البلاغة العربية**، الرياض: دار الرفاعي، ط٣، ١٩٨٨م، ص٩٧.

[٢] انظر: البخاري، محمد بن إسماعيل. **الصحيح الجامع**، ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار ابن الهيثم، ط١، ٢٠٠٤م، كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم الحديث ٥١٤٦، ص٦٢٣.

جاء في لسان العرب: "البيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسن، وأصله الكشف والظهور."[٣]

وجمع الزبيدي في تاج العروس معظم ما قاله العلماء في دلالة البيان، فقال: "والبيان: الإفصاح مع ذكاء، وفي الصحاح هو: الفصاحة واللسن. وفي النهاية هو: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسن، وأصله: الكشف والظهور، وفي الكشاف هو: المنطق الفصيح المعرب عمّا في الضمير، وفي شرح جمع الجوامع: البيان إخراج الشيء من حيّز الإشكال إلى حيّز التجلّي. وفي المحصول: البيان: إظهار المعنى للنفس حتى يتبين من غيره وينفصل عمّا يلتبس به. وفي المفردات للراغب –رحمه الله تعالى–: البيان أعم من النطق؛ لأن النطق مختص باللسان... قال: ويسمى الكلام بياناً، لكشفه عن المعنى المقصود وإظهاره."[٤]

هذا وصف اللغويين لمعنى البيان. أما الأدباء والنقاد فقد أفاضوا القول في معنى البيان، والمستوى الذي وصل إليه، ومنازل الشعراء والخطباء والكُتَّاب في درجاته. "ولعل أول من أصّل هذا الفن هو أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ حين صنع كتابه الذي جعل عنوانه دالاّ بصريح اللفظ على الغاية التي تغياها منه. وكان كتاب الجاحظ هذا مع كتاب معاصره والراوي عنه أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة "عيون الأخبار." هما الأساس الأول في إرساء قواعد هذا الفن (البيان)، بذكر الأدوات الموصِّلة إليه، والمعينة عليه، من ذكر كلام العرب وخطبها وشعرها ومحاوراتها وأجوبتها المسكتة."[٥]

وكتاب الجاحظ الذي يشير إليه الكاتب في الفقرة السابقة هو البيان والتبيين، وقد أثار هذا الكتاب: عنوانه ومضمونه رجلاً كبيراً آخر، وأديباً لامعاً هو أبو هلال

---

[٣] ابن منظور، جمال الدين. **لسان العرب**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت.، مادة بين.

[٤] الزبيدي، محمد مرتضى. **تاج العروس**، تحقيق: مصطفى حجازي، سلسلة التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١م، مادة بين.

[٥] الطناحي، محمود محمد. **مقالات العلاّمة**، ط١، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢م، القسم الأول، ص٣٤٨.

العسكري الذي قال في وصفه: "كثير الفوائد، جمّ المنافع؛ لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفِقَر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء. وما نبه إليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة، إلاّ أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير."[٦]

يقول الجاحظ في هذا الكتاب الكبير عن البيان وأصله: "... وإنما يحيي هذه المعاني ذكرُهم لها، وإخبارُهم عنها، واستعمالُهم إياها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجلّيها للعقل، وتجعل الخفيّ منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً، وهي التي تلخّص الملتبس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيداً، والمقيد مطلقاً، والمجهول معروفاً والوحشي مألوفاً، والغفل موسوماً، والموسوم معلوماً، وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المَدْخَل يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعتَ الله -عَزّ وَجَلّ- يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم، والبيان: اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير؛ حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع."[٧]

لم يكن كتاب الجاحظ وحده الذي تحدث عن البيان العربي واحتفل به، لكن أهميته تكمن في سبقه في هذا الميدان. وقد ألفت بعده عشرات الكتب التي تعد من

---

[٦] العسكري، أبو هلال. **الصناعتين**، حققه: مفيد قميحة، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١م، ص١٣.

[٧] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٥، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٥، ج١، ص٧٥-٧٦

أمهات المصادر في الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، ومنها: أدب الكاتب لابن قتيبة الدَّينوَرِيّ، وعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، والأمالي لأبي علي القالي، والكامل في اللغة والأدب للمبرد، وبهجة المجالس وأنس المُجالس لابن عبد البر القرطبي، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.

إن هذه المصادر والموسوعات الكبرى التي تتحدث عن أدب العرب، ورجاله من الشعراء والكُتَّاب والخطباء والرواة والمؤلفين، ما كان لها أن تكون، لولا هذا التراث الكبير الممتد عبر القرون لهذه اللغة العظيمة، ولولا هذا البيان السامي العجيب الذي حيّر الأذهان وأطرب الآذان. وبخاصة ما كان منه في العصر الجاهلي، من شعراء المعلقات ودواوين الشعراء، وشعر الأيام، وخطب المحافل، وأمثال الحكماء. ولست في هذا البحث مؤرخاً للأدب لأذكر الظواهر والعلل والأسباب والمظاهر والأمثلة، بل أريد أن أقول بكل يقين: إن المجتمع العربي قد امتاز ببيانه، وتفوق في التصرف بخصائص لغته، "ونحن –أمة العرب– أمة بيان وفصاحة، ولغتنا معينة على ذلك بما أودع فيها من خصائص شعرية في الحروف والأبنية والتراكيب، ثم هذه الثروة الهائلة من الأسماء والأفعال والمترادف والمشترك والأضداد، ولغتنا معينة –أيضاً– على البيان والفصاحة بهذه القوانين الرحبة الواسعة من الحقيقة والمجاز، والسماحة في تبادل وظائف الأبنية كالذي يقال من مجيء فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول وبمعنى مُفْعِل، وتبادل وظائف الإفراد والتثنية والجمع، ووقوع بعضها موقع بعض، والتساهل في التعبير عن الأزمنة: كالتعبير عن الماضي بالمستقبل، وبالمستقبل عن الماضي، إذا اقترن بالفعل ما يدل على زمانه، ووقوع بعض حروف الجر مكان بعض، وتذكير ما حقه التأنيث، وتأنيث ما حقه التذكير، والحمل على المعنى، والحمل على اللفظ، وحرية التعامل مع الضمائر غيبة وحضوراً فيما يعرف بالالتفات... إلى سائر قوانين اللغة وأعرافها."[٨] يضاف إلى هذا النص الجامع، تفنن العرب في استخدام حروف المعاني وحروف المباني، وتنوع الأساليب المستمدة من واقع الحياة: كأساليب النفي، والنهي، والأمر، والاستفهام، والنداء، والرجاء، والتوكيد، والمدح، والذم.

[٨] الطناحي، **مقالات الطناحي**، مرجع سابق، القسم الأول، ص٣٤٧-٣٤٨.

يمكن القول -بكل يقين-: إن البيان العربي قد بلغ الذروة في ذلك العصر الذي سبق نزول القرآن. وكان الناس يتذوقون الكلام ويدركون أسراره، يدل على ذلك ما كانوا يعقدونه من أسواق أدبيّة يتنادون إليها، ويتناشدون فيها الأشعار والقصائد، ويرفعون بها رجالاً وقبائل، ويخفضون بها آخرين. ويفاضلون فيها بين الشعراء. كما يمكن القول: إن الجوّ العام في ساحة الجزيرة العربيّة، والمشاعر العامة لدى القبائل العربيّة التي ينطلق شعراؤها شرقاً وغرباً متغنين بأمجادهم، مفاخرين بقبائلهم، معتزين بأيامهم، كانت تعلن التحدي أن تكون أمة من الأمم أو جماعة من الناس، يمكن أن تقف أمامها في ميدان المفاضلة والتفاخر والتفوق في فن القول، وإنشاد الشعر، وإلقاء القصائد العظام في مختلف ميادين القول ودواعيه في حياتهم المائجة بالوقائع والأحداث.

كان البيان العربي في العصر الجاهلي في تفوق كبير، وكأن الدنيا تهيأت لاستقبال حدث عظيم، يحمل معه بياناً عالياً سامقاً سيفاجئ أمة الفصاحة والبيان، وسيذهل أرباب الشعر، وملوك البيان، فإما أن يؤمنوا به ويقولوا: ما هذا بقول بشر، إن هو إلا وحي يوحى، وإما أنْ تأخذَهم العزة بالإثم، ويقولوا -على الرغم من عدم قناعتهم بموقفهم-: إن هو إلا سحر يؤثر، إن هو إلا قول البشر. وستندلع عندئذٍ موقعه التحدي الكبير، التي ستشعل جذوة العلم، وتشحذ همم العلماء، من كل أقطار العالم الإسلامي؛ للدفاع عن القرآن الكريم، وبيان وجوه إعجازه، وتفسير سوره وآياته، وإعراب تراكيبه وكلماته، فتنشأ جرَّاء ذلك علوم كثيرة، وتؤلف كتب عديدة، وتوجد حياة جديدة، تكاد تختلف كل الاختلاف، في كل مجالات الحياة، عما كان يعرفه الناس في العصر الجاهلي.

ثانياً: الكتاب تشريع، والقرآن معجزة، والبيان تحدّ دائم

شاءت حكمة الله -عزَّ وجلَّ- أن ينشر دينه الحق في الأرض، وأن يرسل الرسل لتبليغ الرسالة، وأن يترل الكتب على رسله لحمل الشرائع المناسبة لكل أمة من الأمم. فالدين أصل، وهو النهر الكبير المتدفق منذ بدء الخلق حتى قيام الساعة، ومن هذا النهر

تفرعت شرائع لتهتدي بها الأمم المتوالية على مَرّ العصور، وحملت الكتب السماوية هذه الشرائع ليتزود بها الأنبياء والرسل. ولكن فكرة الصراع الأزلي بين الخير والشر، والحق والباطل، كانت تفرز في كل عصر فئات من الناس، تناوئ الدين، وتخالف الرسل، وتقف في طريق الدعوة الإلهية إلى الخير؛ ذلك أن الدين يجعل الأمر كله لله، وأن الرسل يحكمون بأمر الله عز وجل، وينشرون العدل والمساواة بين الناس، وهذا أمر لا يعجب الطواغيت وحكام الأرض الذين يظنون أنهم أرباب الناس من دون الله. ومن هنا تنشأ حالات الصراع المستمر بين الرسل ومن تابعهم من جند الحق، والطواغيت ومن والاهم من أشرار الخلق. وقد اقتضت حكمة الله -عزَّ وجلَّ- أن يؤيد رسله وأنبياءه بالمعجزات، حتى يبينوا للناس أنهم رسل من عند الله، وأن الله -عزَّ وجلَّ- هو الذي يؤيدهم بنصره وتأييده. ويقول الله -عزَّ وجلَّ- في آية أخرى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا. ﴾ (الكهف: ٥٦)

ويلاحظ أنه في تاريخ الرسل والأنبياء جميعاً، عليهم الصلاة والسلام، قبل سيدنا محمدﷺ كان الفصل بين كتب التشريع ومعجزات الرسل تاماً؛ إذ لا صلة لأحدهما بالآخر. فالكتاب للتشريع والمعجزة للتأييد. وتكون المعجزة للتأييد؛ لأنها تجري فوق ما يدركه البشر أو يستطيعه الناس في تكوينهم العادي، وقدراتهم الإنسانية. والمعجزة في لسان الشرع هي: "أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة."[٩] وهي بهذا التعريف الموجز تتحدد لها شروط أربعة لا بد من تحققها حتى تؤدي الهدف الذي جرت من أجله، فهي أمر لا يستطيعه إلا الله، عز وجل، وينبغي أن ينبئ عنه النبي قبل أن يقع، كما أن الواقع لا بد أن يكون موافقاً لما قيل من قبل، وألا يكون في استطاعة أحد من الناس أن يجري هذا الأمر.

وهي بهذه الشروط، عندما تتحقق، تبين للناس أن هذا الرسول الذي جرت على يديه هذه المعجزة، مؤيد من عند الله؛ وأنه لا يستطيع بقدراته البشرية أن يجري هذا

[٩] الخالدي، صلاح. **إعجاز القرآن البياني**، ط١، عمّان: دار عمار، ٢٠٠٠م، ص١٨.

الأمر، وبذلك يكون كل ما يقوله من أمر الله حق وصدق ويقين لا بد من الإيمان به. والمتفحص معجزات الأنبياء يجدها حسّية، مما يتداوله الناس في حياتهم، وكانت محدودة، مؤقتة بوقت النبيّ ورسالته التي أرسل بها. فإذا ذهب النبي وانتهت رسالته، ذهبت معجزته، بل ربما تذهب معجزته بانتهاء المناسبة التي حدثت فيها. ولّما كانت رسالة سيدنا محمدﷺ باقية أبد الدهر، حتى قيام الساعة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والرسل، كانت المعجزة التي أيده الله عز وجل بها خالدة –أيضاً– خلود رسالته. يقول أحمد شوقي معبراً عن هذه الفكرة:[١٠]

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا بحكيم غير منصرم

آياته كلما طال المدى جُـدَدٌ يَزينهن جمالُ العِتْقِ والقِدَمِ

كان الفصل بين التشريع والمعجزة –إذاً– تاماً في شرائع الرسل قبل سيدنا محمدﷺ كان التشريع يتنزل من السماء، من عند الله –عزَّ وجلَّ– في كتاب سماوي، يُوحي به الله –عزَّ وجلَّ– إلى رسوله، كل في زمنه، فتنزلت على الأنبياء صحف إبراهيم وموسى، والألواح، والزبور والتوراة والإنجيل، وغيرها من الكتب مما قص علينا القرآن الكريم، ومما لم يقص، ولكنا نعلم يقيناً أنه ما من نبي إلا كان ربه يوحي إليه بالشرع الذي يكلف بتبليغه في أمته. يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ .﴾ (غافر: ٧٨)

وفي أثناء حياة كل نبي في قومه، وفي أثناء دعوته، وحواره مع قومه، كانت تتحقق المعجزات التي يؤيد بها الله –عزَّ وجلَّ– أنبياءه، والناس بين مؤمن مصدق وكافر معاند، يقول الله عز وجل: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ.﴾ (المؤمنون:٤٣-٤٤)

[١٠] شوقي، أحمد. **الشوقيات**، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، د.ت.، ج١، ص١٩٧.

ذهب الأنبياء، وانتهت رسالات السماء التي جاءوا بها، وانتهت المعجزات التي أيدّهم الله -عزَّ وجلَّ- بها في أثناء دعوتهم وتهيأت الدنيا لميلاد رسول عظيم، شاء الله -عزَّ وجلَّ- أن يكون آخر المرسلين، وأن تكون دعوته هي الرسالة الخالدة، وأن يكون التشريع الذي يأتي به، أو يتنزل عليه هو التشريع الخالد، وأن تكون المعجزة التي يؤيده الله عز وجل بها هي في أعلى ما يتفوق به قومه ويتفاخرون، ويتباهون به ويتفاضلون، كانت معجزته في بيان سماويّ يتنزل عليهم من السماء، ويتحداهم أن يأتوا بمثله وهم أهل الفصاحة والبيان.

إن الشيء الجديد في دعوة محمدﷺ أن التشريع والإعجاز التقيا فيها في نص واحد، هو القرآن الكريم. لقد أنزل الله -عزَّ وجلَّ- شرعه الحكيم في رسالته الخاتمة، الخالدة في (الكتاب) الذي أنزله على محمدﷺ يقول الله عز وجل: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ (المائدة:٤٨)

لقد صدع رسول الله بأمر ربه، وقام يدعو قومه إلى عبادة الله، ويتلو عليهم آياته، وفوجئ قومه بهذا البيان الساحر الذي لم يعهدوه، و لم يسمعوا مثله من قبل، ووقف زعماؤهم وعامتهم حيارى مشدوهين بكلام جديد، لا هو بالشعر الذي يعرفونه حق المعرفة، ولا هو بالنثر، ولا هو بالسجع الذي يرطن به الكهان، ولا هو بالخطب والأمثال والأرجاز التي يتحاورون بها. وكان أكثر ما أثار هؤلاء القوم أن محمداًﷺ يخاطبهم في أمور عقيدتهم بهذا البيان العالي، الذي يجمع فيه بين أعمق ما يمسّ أفكارهم ومعتقداتهم، ويتفوق على أرقى ما يصدر عن ملكاتهم وقدراتهم في الفن والتعبير.

نعم، لقد جمع هذا (الكتاب) الذي يخاطبهم به رسول الله بين التشريع المحكم والبيان المعجز، وكان مصطلح (الكتاب) يمثل جانب التشريع، ومصطلح (القرآن) يمثل جانب الإعجاز والبيان، تماماً كما بينته آيات القرآن الكريم.[١١]

[١١] أبو عودة، عودة. الكتاب والقرآن دراسة دلالية في السياق القرآني، ضمن **كتاب دراسات إسلامية وعربية**، إعداد جمال أبو حسان، عمّان: دار الرازي، ط١، ٢٠٠٣م ص٤٧١-٤٩٦.

ومن المناسب هنا أن نذكّر بقوله تعالى في أول سورة الرحمن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١-٤) فبدء السورة باسم الله تعالى (الرحمن) يدل على أهمية هذا البيان الذي أنزله الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه الكريم القرآن. ومن المعروف أن (الرحمن) اسم خاص بالله، عزَّ وجلَّ، كلفظ الجلالة (الله). يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ،﴾ (الإسراء: ١١٠) فقوله تعالى: "علّمه البيان" يدل على أن هذا القرآن الكريم، بالصورة التي نزل عليها، إن هو إلا تعليم مستمر للناس حقيقة البيان القرآني. وبيان وسائله وأساليبه. ومعنى هذا أن البيان ليس وحياً ينزله الله -عزَّ وجلَّ- على رسولهﷺ أو من يشاء من عباده، بل هو نتيجة لاتخاذ عدة وسائل في طرائق التعبير، واستخدام أنماط من التركيب اللغوي، تؤدي جميعها إلى هذه الذروة من البيان ومن صور الإعجاز التي نراها في آيات القرآن الكريم.

فكل ما يقال عن مظاهر البيان القرآني في هذا البحث وفي غيره من الدراسات يشكل شرحاً لقوله تعالى "علّمه البيان". فالقرآن الكريم يعلمنا كيف يمكن أن نستغل قدرات لغتنا العربية في إنتاج أدب عالٍ رفيع سام، يستمد من البيان القرآني روحه ووسائله.

وتعتمد التفرقة بين دلالة مصطلحي (الكتاب) و (القرآن) في القرآن الكريم على حقيقة ثابتة، وقاعدة أساسيَّة من قواعد النظر في الإعجاز القرآني. وهي أنه لا ترادف مطلقاً في القرآن الكريم.[١٢] ولقد شغلت مسألة الترادف العلماء قديماً وحديثاً بين منكر للترادف ومجيز له. وكلٌ يعتمد على ما تيسر له من شواهد وأمثلة في ميدان اللغة الفسيح. ولعل أوفى ما كتب في هذا الموضوع هو ما أورده الدكتور كمال بشر في كتابه (دور الكلمة في اللغة)، وقد بين فيه أن سبب اختلاف العلماء حول الترادف استمر لعدم الاتفاق على منهج علمي محدد في دراسته الموضوع.[١٣] ولو أننا وحّدنا منهج الدراسة، وبيئتها، وحددنا مفهوم الترادف، الذي يعني وجود كلمتين

[١٢] أبو عودة، عودة. نفي الترادف في القرآن الكريم للدكتور، الجامعة الأردنية، **المجلة الثقافية**، العدد١٧، ١٩٨٧م.
[١٣] س: أولمان. **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة: كمال بشر، القاهرة: دار الطباعة القومية، ١٩٦٢م، ص١٥٥.

تقوم إحداهما مكان الأخرى في كل سياق، في بيئة واحدة، وفترة واحدة محددة، لوجدنا أنه غير موجود. أما ما يراه بعض العلماء قديماً وحديثاً من وجود بعض الأمثلة على الترادف فهو يعود لعدم الاتفاق على تعريف محدد موحد للترادف، ولعدم تحديد بيئة دراسته، وزمان الدراسة. فاللهجات المختلفة، وتطور الدلالة، ودخول الكلمات المعربة مجالات اللغة، وكذلك الاستعارات الميتة، والصفات الزائلة التي أصبحت بفعل الزمن أسماء للشيء، كلها عوامل تدخل لتوهم بعض الدارسين أن هناك كلمات عديدة للمعنى الواحد، وهذا فهم خادع ينبغي أن يزول. على أن معظم الذين قالوا بالترادف كانوا يرجعون عن قولهم وهم لا يشعرون؛ ذلك بأنهم في دراساتهم اللغوية كانوا يتخذون موقفاً يدل على إيمانهم بوقوع الترادف، ولكنهم عندما يتخذون جانب التفسير، ويتحدثون بلسان المفسرين. كانوا يتنبهون إلى اختلاف التركيب القرآني اختلافاً يسيراً عندما يرد في موضعين أو أكثر. مثل قوله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿...وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١) قال الألوسي في تفسيره: " (ولا تقتلوا أولادكم) بالوأد (من إملاق) من أجل فقر أو من خشيته كما في قوله سبحانه "خشية إملاق" وقيل: الخطاب في كل آية لصنف وليس خطاباً واحداً، فالمخاطب بقوله –سبحانه– "من إملاق": من ابتلى بالفقر، وبقوله تعالى (خشية إملاق) من لا فقر له ولكن يخشى وقوعه في المستقبل، ولهذا قدَّم رزقهم ها هنا في قوله عز وجل (نحن نرزقكم وإياهم)، وقدم رزق أولادهم في مقام الخشية، فقيل نحن نرزقهم وإياكم، وهو كلام حسن."[١٤]

وربما كان التمثيل بما ورد في هاتين الآيتين (من إملاق) و (خشية إملاق) لا يعد من باب الترادف بمعناه اللغوي المعروف، فهاهنا تشابه عام في الألفاظ، وفيه دلالة على اختلاف دلالة التركيب اللغوي المتشابه في المعنى العام الواحد. وهذا نوع من أنواع المقابلة في التراكيب التي تبدو متشابهة.

[١٤] الألوسي البغدادي، شهاب الدين محمود. **روح المعاني، المشهور بتفسير الألوسي**، مصر: إدارة الطباعة المنيرية، الجزء الثامن، ص٤٧.

ومثل هذه المقابلة بين التراكيب المتشابهة إلى حد كبير، أو بين الكلمات التي تبدو أنها مترادفة، مثل: (انفجرت) و (انبجست) تدل دلالة قاطعة على أن المفسرين قد ألغوا الترادف عملياً، وإنْ كان بعضهم قد قال به في كلام عام، لا يثبت عند التدقيق في دلالات الألفاظ والتراكيب في كل سياق وردت فيه.

ونستطيع أن نقرر بيقين أن الترادف في القرآن الكريم غير موجود، وأن كل كلمة لها دلالتها في سياقها الذي ترد فيه. وهذا أمر مقرر في القرآن الكريم، وواضح لكل من يدرس القرآن الكريم دراسة واعية. وقد فرقت آيات القرآن الكريم بين دلالة الكتاب ودلالة القرآن وهي تجمع بينهما في سياق واحد. تأمَّل في قول الله عز وجل في مطلع سورة يوسف (عليه السلام): ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ (يوسف: ١-٢) ويلاحظ أن الضمير في (أنزلناه) يعود على الكتاب المبين، وأن كلمة (قرآناً) في هذه الآية الكريمة تعرب حالاً منصوبة، قال الألوسي "ونصب (قرآناً) على أنه حال. وهو بقطع النظر عما بعده وعن تأويله بالمشتق حال موطئة للحال التي هي (عربياً). وإن أُوّلَ بالمشتق أي مقروءاً فحال غير موطئة، وعربياً إما صفته على رأي من يجوز وصف الصفة، وإما حال من الضمير المستتر فيه، على رأي من يقول بتحمل المصدر الضمير، إذا كان مؤولاً باسم المفعول مثلاً،.... ومعنى كونه عربياً أنه منسوب إلى العرب باعتبار أنه نزل بلغتهم."[١٥] وأحب أن أنوه هنا بإشارة الألوسي الدقيقة في قوله (وإن أُوِّل بالمشتق أي مقروءاً فحال غير موطئة) وهذا في الحقيقة ما يراد بكلمة (قرآن) حيثما وردت مقترنة بالكتاب، وقد وردت في مواطن كثيرة منها:

قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ (الحجر: ١)

وقال تعالى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ (النمل: ٣)

ولا بد هنا من تدبر هاتين الآيتين ملياً، والتفكر في الدلالة التي توحي بها كل منهما، ودلالة الكتاب والقرآن في الآيتين.

[١٥] **روح المعاني**، مرجع سابق، ج١٢، ص١٥٣.

إن الآيات الكريمة تؤكد أن القرآن الكريم يقصد به هذه الصورة البيانية العالية، وهذا النظم الفريد، وهذا الاستخدام المعجز لكل ما تتسع له اللغة العربية من فنون القول وأنماط التعبير، التي عرضناها، قبل قليل في هذا البحث. لقد أنزل الله -عزَّ وجلَّ- (كتابه) في صورة (قرآن) يقرأ، قرآناً عربياً، يستخدم حروف اللغة العربية نفسها، وطرائق التعبير نفسها، وأساليب القول نفسها، ولكن بنظم إلهي معجز، لم يستطع العرب من قبل ومن بعد، أن يأتوا بمثله على الرغم من التحدي القائم إلى يوم القيامة.

إن هذا هو ما تقصده الآيات القرآنية عندما تكرر تركيب (قرآناً عربياً) في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ... ﴾ (طه:١١٣) وقوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الزمر: ٢٨) وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ (الشورى: ٧)

ثالثاً: وسائل البيان القرآني

لقد ألحت آيات القرآن الكريم على أن الكتاب الذي أنزل على محمدﷺ نزل بلغتهم، وبطرائق تعبيرهم. ولذلك تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله. وما كان ليتحداهم لو كان بغير لغتهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ (فصلت: ٤٤) ومن هنا كان وجه التحدي مقبولاً ومعقولاً لدى الناس جميعاً. ومن هنا تتضح القاعدة الأساسيّة لهذا البحث، وهي أن وسائل البيان العربي ينبغي أن تكون مستمدة من طرائق التعبير القرآني، وأن الخصائص التي تتمتع بها اللغة العربية هي الوسائل التي استخدمها البيان القرآني. ومن هنا وقعت المفاجأة؛ إذ تبدت للعرب لغتهم بحروفها وكلماتها وتراكيبها في أنماط جديدة، وأساليب مدهشة لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها، مع أنهم جميعاً كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهنا لا بد من وقفة متأنية لتوضيح جوانب المسألة. فعندما أنزل الله -عزَّ وجلَّ- كتابه على النبيﷺ

أنزله قرآناً مقروءاً، وجعل فيه من وسائل البيان وروعة التعبير ما فاق بيان العرب وفصاحتهم. وهنا يجب التأكيد على حقيقة واضحة، وهي أن القرآن الكريم وهو يستعمل لغة العرب ووسائل بيانهم تفوق عليهم وأعجزهم أن يأتوا بمثله على الرغم من أنه نزل بحروفهم وكلماتهم وأنظمتهم اللغوية والصرفية. ولذا فإن التحديق في تراكيب القرآن الكريم وفي صيغه الصرفية، وفي اختياره للحروف، وفي تآلف الكلمات، وفي الترابط الوثيق بين المضمون واللفظ هو السبيل الوحيد لمعرفة البيان القرآني، وتمثل صوره الرائعة، وآفاقه السامية، التي لاتحدّ ولا تنتهي عجائبها، ولا يفرغ الباحثون من التحدث عنها ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا.﴾ (الكهف: ١٠٩) لقد صنع القرآن الكريم في اللغة العربيّة لغة إسلامية عالية، تُمثل فيها كل ما لدى العرب من فنون القول وإيقاع الشعر، وروعة التعبير، ولكنهم عندما قرأوا القرآن الكريم أو استمعوا إليه، وقفوا مشدوهين! وجدوا في القرآن الكريم كل ما يجدونه في الشعر من روعة الإيقاع، وجمال التقسيم، ولكنهم لم يجدوا فيه الشعر بدلالته الاصطلاحية التي عرفوها وقرّروها في مصطلحات علومهم فيما بعد. لم يعرف العرب في الجاهلية مصطلحات العرب من بحور وتفعيلات وقواف وزحاف وعلل. ولكنهم عندما عرفوها فيما بعد، بعد أن صنعها الخليل بن أحمد الفراهيدي، عادوا إلى القرآن فوجدوا أن فيه بعض المقاطع والتفعيلات والأوزان التي تشبه أشعارهم. ولكننا عندما نعلم أن القرآن الكريم أنزل قبل معرفة هذه المصطلحات الفنية نقرر يقيناً أن القرآن الكريم يقول لهم: إنَّه جاءهم بشيء جديد، بنظم قرآني فريد، وتحداهم أن يأتوا بمثله.

نستطيع –إذن– أن نستخلص من تدبر آيات القرآن الكريم، وسائلَ البيان القرآني التي أعجزت الناس؛ لتظل نموذجاً يحتذى، عسى أن يتنافس الكتّاب والشعراء في الصعود إلى سلم البيان ما دام القرآن الكريم هو مثلهم الأعلى وقدوتهم العالية التي يتعلمون منها وهي متمثلة في الأمور الآتية:

١. في الحروف:

الكلم: اسم، وفعل، وحرف. وقد دأبت كتب النحو واللغة على اعتبار الحرف تابعاً للاسم والفعل. ومعظم هذه المصادر تقول بعد تعريف الاسم والفعل: "والحرف في الاصطلاح ما دل على معنى في غيره" كما ورد في شرح شذور الذهب لابن هشام. ولكن هذا التعريف ليس دقيقاً؛ لأن بعض الحروف لها دلالة في ذاتها، مثل: لكن، وبل، ومذ، ومنذ (عند من يعدهما حرفين) وغيرها. والحرف يشارك الاسم والفعل في التركيب اللغوي.

وقد جعل القرآن الكريم للحرف منزلته المقدرة عندما بدأ به، فسواء أكانت البداية بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول آية من القرآن الكريم في مطلع سورة الفاتحة، أم كانت بـ (ألم) في أول سورة البقرة. فكلتاهما بدايةٌ بحرف. والباء حرف جر، وهذا الجار والمجرور (بسم الله الرحمن الرحيم) قدر له أن يكون أكثر الأصوات والتراكيب اللغوية تردداً وانتشاراً في فضاء الكون.[١٦]

والحروف نوعان: حروف المباني وحروف المعاني:

فأما حروف المباني؛ فهي الحروف التي تشكل كلمات اللغة وتبينها. وأما حروف المعاني فهي تلك الحروف التي تشكل دلالات خاصة لكل منها في السياق، وهي – أيضاً– عوامل نحوية تؤثر في إعراب الأفعال والأسماء، ومنها حروف الجر، وحروف الجزم، وحروف النصب، وحروف الشرط، وحروف الاستفهام، وغيرها من حروف المعاني التي أُلّفت فيها كتب كثيرة مفيدة.

وسننظر في بعض حروف المعاني وحروف المباني وأثرها في البيان القرآني فالحروف: الهمزة واللام والميم –مثلاً– تشكل وفق ترتيبات معينة ومقصودة –كلمات كثيرة، منها: ألم وأمل، وملأ، وملء، ولمأ، ولأم. والحروف –كما هو معلوم– هي أسماء للأصوات التي تمثلها. فإذا كان الأمر كذلك، فإن تناغم هذه الأصوات، وسلاستها في الكلمة الواحدة، وفي التراكيب اللغوية التي تتألف من كلمات متعددة،

[١٦] أبو عودة، عودة. **شواهد في الإعجاز القرآني**، عمّان: دار عمّار، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص٥٣.

وفق قواعد النحو واللغة، هو الأساس الأول الذي يقاس عليه جمال التركيب اللغوي، وفصاحته، وبلاغته، وبيانه. وقد فصلت كتب البلاغة، قديماً وحديثاً، في شروط فصاحة الكلمة، وفي صفات التركيب اللغوي الصحيح، وفي عيوب الألفاظ والتراكيب وما يقع فيها من تعقيد لفظي وتعقيد معنوي. وما أظن كتاباً في البلاغة خلا من عشرات الأمثلة التي يرددها مدرسوها؛ لتوضيح عوامل فصاحة الألفاظ وبلاغة التراكيب عندما تخلو من الألفاظ الحوشية، والكلمات الغريبة، والتراكيب المعقدة، والمعاني المتداخلة الغامضة.

أما القرآن الكريم فهو التعبير السهل الواضح، المريح للنفس، المتموج مع خفقات القلب، تقرؤه من أوله إلى آخره فلا تجد فيه حرفاً ناشزاً، ولا كلمة غريبة، ولا تركيباً معقداً، وأظن أن موقع (الحرف) في القرآن الكريم ما زال بحاجة إلى بحث علمي جاد متخصص.

نتدبر حروف المباني فتجد في تآلف الحروف في كلمات القرآن ما لا تستطيع أن تصفه، بل إننا نحس به ونلمسه لدى القراءة والدعاء والصلاة. وإن حسن اختيار أصوات الكلمة الواحدة، ومن ثم أصوات الكلمات المتلاحقة، في القرآن جميعه أمر محسوس لدى كل قارئ للقرآن. ولو أنك قرأت الآية الواحدة عشرات المرات لما أحسست بثقل في القراءة أو ملل من الترداد، على حين لو أن المرء منا ردد اسمه، وهو أحب الأشياء إليه، لمل منه بعد مرتين أو ثلاثاً.

بعض الآيات يتكرر فيها حرف واحد، كالقاف مثلاً، عشر مرات، فلا تشعر وأنت تردّدها بأي صعوبة أو حرج، ولو أنا طلبنا من أي فرد أو مجموعة من الناس أن يؤلفوا جملة واحدة فيها حرف يتكرر عشر مرات لعَجَزوا إلا أن يؤلفوا كلاماً لا معنى له، أو لا غناء فيه. اقرأ قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ.﴾ (المائدة: ٢٧)

واقرأ قوله تعالى في سورة هود، وانظر إلى حرف الميم يتكرر في آية منها ست عشرة مرة، فلا تحس إلا بتآلف الكلمات والأصوات مما يعجز البشر أن يأتوا بمثله. قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ.﴾ (هود: ٤٨)

وربما كان تكرار نون النسوة ثقيلاً على اللسان، ولطالما أحسسنا بذلك عندما ننطق بها في بضع كلمات فنحسّ بالتكلف والتعب، ولكنها في سورة يوسف صنعت جوّاً طبيعياً، فكأنك أمام مجموعة من النساء فعلاً، وأنهن جميعاً يتحدثن في وقت واحد، تماماً كما هو حالهن –غالباً– في حياتهن الواقعية، يقول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ.﴾ (يوسف: ٣١)

وفي القرآن الكريم عشرات المواضع، مما تتكرر فيه الأصوات، أو تتتابع، مما صار مجالاً واسعاً لكتابات الباحثين، و لم نجد أحداً من الكتاب أشار إلى صعوبة في النطق، أو معاظلة في المعاني، أو ثقل في اللسان؛ ذلك لأن القرآن الكريم قد نظمت حروفه وكلماته في نسق عجيب لا يكون إلا للقرآن وحده.

أما حروف المعاني فإن الحديث عنها متصل بالحديث عن الترادف، الذي ينفيه البحث الجاد عن القرآن الكريم جملة وتفصيلاً. ولا تستقيم نظرية الإعجاز القرآني إلا إذا آمنا بأنه لا يقوم حرف مقام حرف، ولا كلمة مقام كلمة، بل كل حرف وكل كلمة في مكانه الذي أبدعه الله عز وجل فيه.

- اقرأ قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ (الطارق: ٤)

إن القارئ يميل سريعاً إلى أن (لّما) هنا بمعنى (إلا)، بل إن معظم كتب التفسير ذكرت هذا صراحة دون تردد، وليس الأمر كذلك.[١٧]

[١٧] أبو عودة، عودة. بحث (لما) بين القواعد النحوية والقراءات القرآنية، دمشق: **مجلة مجمع اللغة العربية**، العدد٧٦ سنة ١٩٩٨م.

- واقرأ قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.﴾ (الأعراف: ١٨٧)

إن اللسان يكاد يعجل بقراءتها (كأنك حفيّ بها)؛ لأن هذا التركيب هو الشائع على ألسنة الناس. بل إن بعض كتب التفسير ذكرت أن ابن مسعود قرأ (كأنك حفيّ بها)،[١٨] وبعض المفسرين ذكر أن "عنها متعلق بيسألونك،"[١٩] وما هذا إلا لأن الفعل (حفا يحفو يتعدى بالباء، يقال:" حفاه وحفا به يحفو حفواً: أكرمه، وحفا شاربه: بالغ في قَصِّه. وحفي يحفى بفلان حفاوة –بفتح الحاء وكسرها: احتفل به.[٢٠]

ومثل هذا يقال في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإنسان: ٦) والمألوف لدى الناس في كلامهم وفي آدابهم أن يقولوا: عيناً يشرب منها عباد الله، ومثل هذا –أيضاً– ما يُلحَظ في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٣) وقد شرحتها كتب التفسير بأن الباء هنا بمعنى في، أي نصركم الله في بدر.[٢١] وهذا غير كاف البتة؛ ذلك أن معنى الظرفية الذي تحققه (في) موجود في كلمة (بدر)، ولكن الأولى والأحسن أن تكون الباء هنا بمعنى السببية، أو الآلية، أي: إن انتصاركم في بدر كان سبباً لانتصار الإسلام وانتشاره على مرّ الأزمان واتساع المكان، مصداقاً لدعائه عليه الصلاة والسلام في أثناء معركة بدر فيما رواه ابن هشام؛ إذ قال: "ثم عدَّل رسول اللهﷺ الصفوف، ورجع إلى العريش فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– ليس معه فيه غيره، ورسول الله يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد" وأبو بكر يقول: يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما

---

[١٨] الزمخشري، جارالله محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق التنزيل**، ط١، القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧م، ج٢، ص١٣٥.

[١٩] المرجع السابق، ج٢، ص١٣٥.

[٢٠] المعجم الوسيط، مادة حفا.

[٢١] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبي**، القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٦٤م، ج٤، ص١٩٠.

وعدك."[٢٢] قال الإمام القرطبي في تفسيره "وعلى ذلك اليوم بني الإسلام،"[٢٣] ومن المعروف أن الله -عزَّ وجلَّ سماه يوم الفرقان؛ لأنه "اليوم الذي فرقت فيه بين الحق والباطل، وهو يوم بدر،"[٢٤] قال الله عز وجل: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .﴾ (الأنفال: ٤١)

ومن قبيل الحديث عن البيان في حروف المعاني ما يتناقله الرواة، وترويه الكتب، ويتحدث به العلماء عن استخدام حرف مكان حرف، كاستخدام الواو بدل الفاء، أو ثُمّ مكان الفاء، أو أنه قال هنا (قل) وقال في موضع آخر (فقل)، وفي موضع ثالث لم يقل (قل) إنما ذكر الإجابة دون وساطة، كقوله تعالى في سورة البقرة (١٨٦): ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ على حين ذكر سبحانه وتعالى كلمة (قل) في كثير من المواضع التي أُجيب بها عن سؤال، كقوله تعالى في مطلع سورة الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (الأنفال: ١)

ومن هذا القبيل -أيضاً- ما تراه من تكرار حرف بعينه، مثل (أم) في سورة الطور، تراه في مطلع عدد كبير من آياتها، الآيات من ٣٠-٤٣، تقرؤها فتحس بنشوة وراحة، وتكررها مرات ومرات، فيتفاعل في صدرك جمال التعبير وتلاحق المعاني، وتتشكل في نفسك رغبة ملحة بدوام النظر في القرآن الكريم وتلاوة آياته. وقل مثل هذا، في كلمة (وأنّا) التي تتكرر في بداية عدد كبير من آيات سورة الجن، الآيات (من ٥-١٤) وتردد (كان) في بعض آيات سورة الكهف، (من ٧٩-٨٢)، ومثل هذا كثير في القرآن الكريم، مما لا يتسع هذا البحث لعرضه كاملاً.

٢. الكشف عن دلالات النفس باستخدام بعض الحروف:

ويتصل بهذا أن بعض الحروف في القرآن الكريم عندما تستعمل في تركيب محدد تكشف عمّا في القلب، وتبيّن الانفعالات النفسية والوجدانية، التي قد لا تبينها

[٢٢] ابن هشام، محمد بن عبد الملك. **سيرة النبي**، راجع أصولها محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، ج٢، ص٢٦٧.

[٢٣] **تفسير القرطبي**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٠.

[٢٤] المرجع السابق، ج٤، ص١٩٠.

صفحات عديدة في التعبير العادي. من ذلك مثلاً قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٨٩-٩٠)

تدبر جيداً في قوله تعالى: "قالوا أإنك لأنت يوسف"، وهذه التي يسميها علماء النفس: الاستعادة التلقائية السريعة الممزوجة بالشك واليقين معاً، ويمكن أن تتضح هذه الدلالات، إذا كتبناها، هكذا:

- قالوا أأنت يوسف؟

- قالوا إنك لأنت يوسف.

سؤال يبعثه الشك لسنين طوالٍ لم يروا فيها يوسف، وهم تركوه طفلاً في الجب، ثم هم يشاهدونه الآن عزيز مصر.

ويقينٌ يقرره مراجعاتهم المستمرة لهذا العزيز الذي كان في كل مرة، وفي كل لقاء يُلمِّح لهم عن نفسه، ولكنّ الموقف العام، والمكانة العالية التي وصل إليها يوسف، حجبت عنهم البصر به من قبل.

إن كلاً منا يقف هذا الموقف المدهش عندما يقابل شخصاً باعدت بينهما السنون والأحداث، ثم يلتقيان بعد هذه المدة الطويلة فيقول أحدهما للآخر: ألست أنت فلان؟ فيقول بلى: أنا هو.

إن هذه الذروة من البيان لم يتوصل لها الإنسان قبل أن يتعلمها ويشاهدها في القرآن الكريم.

٣. في الكلمات:

لكل كلمة -بكل تأكيد- معنى في ذاتها ومعنى في السياق الذي ترد فيه. وغالباً ما يكون المعنى السياقي أوسع دلالة وأشد تأثيراً في القارئ أو السامع؛ لأن السياق يوظف

عناصر الدلالة كلها من أجل التعبير عن المقصود. وهذا موضوع لغوي واسع، يتحدث عنه علم الدلالة، وعلم المصطلح، وعلم اللغة الوظيفي والاجتماعي، وغير ذلك من العلوم التي تتصل بالهدف الأساسي من التعبير، وهو أداء المعنى بشكل دقيق مؤثر.

وللقرآن الكريم في هذا المجال إسهام فعّال في اشتقاق الكلمات، وصياغة التراكيب، وصناعة المعاني، من خلال استثمار المعاني الذاتية للألفاظ في ميدان الخبرات الإنسانية المستمدة من البيئة الحيّة، اعتماداً على قوانين اللغة القائمة في النفس، وخبرة المتكلم بلغته، ومعرفته بقوانين اشتقاقها وتراكيبها وأوزانها الصرفية، ودلالاتها المعجمية، وأساليب التعبير المتنوعة فيها.

فلنأخذ –مثلاً– كلمة المنافقين؛ إذ بدأ تشكلُ المصطلح الذي تحمله الآن من معناها الذاتي الأوليّ وهو كلمة (نافقاء) و (نُفَقَة) كَهُمَزة، وهي "إحدى جِحَر اليربوع يكتمها ويظهر غيرها، وهو موضع يُرقّقه، فإذا أُتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق، أي خرج. والجمع النوافق، وانتفق (الجربوع) خرج من نافقائه. والقاصعاء جُحر آخر له."[٢٥]

وقد عرف العرب في الجاهلية عدة معانٍ لهذه المادة، تطورت كلها عن معنى النفق وهو السربُ في الأرض، الذي كان يحفره اليربوع ويجعل له فتحتين، فإذا جاءه السيل أو الخطر من ناحية خرج من الناحية الأخرى. ومن معانيها الجاهلية، الرواج في البيع والنفوق بمعنى الموت. و لم يرد لهذه المادة في الشعر الجاهلي استعمال في غير هذه المعاني. وأكثر ما استعملت فيه تصوير الجيش العظيم بأنه منفق الجرذان، أي يخرجها من نافقاءاتها. قال أوس بن غلفاء الهجيمي يصف جيشاً عظيماً:[٢٦]

جَلَبْنا الخيلَ مِنْ جَنْبَيْ أَريك إلى أَجَلي إلى ضِلَع الرجّام
بكل مُنَفّقِ الجُرذان مِنْه شديدِ الأَسْر للأعداء حامِ

[٢٥] **تاج العروس**، مادة نفق.

[٢٦] المفضل، الضبّي. **المفضليات**، تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، مصر: دار المعارف، ١٩٦٤م، ص٣٨٧.

وللمرء أن يتصور وقع الكلمة باستعمالها القرآني على العربي الذي يعرف أسرار لغته ومعاني تراكيبها. يسمع تراكيب: "الذين نافقوا"، و"مَرَدوا على النّفاق"، و"المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض"، و"إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم"، وغيرها. إن العربي عندما يسمع هذا تدور في رأسه عمليات دلالية بأسرع من الضوء، فيربط بين المعنى العربي المعروف لديه، وهذا التركيب القرآني الجديد، فتصيبه الدهشة والحيرة والسِّحر، ويحسّ كأن هذا القول يأتيه من عالم آخر، ولكن يردّه إلى عالم الحقيقة أن هذا قول يشبه بحروفه وأصواته وكلماته ما يتعامل به هو. من هنا كان انشداه العرب بالقرآن كبيراً، وأنهم -على الرغم من مكابرتهم وعنادهم- كانوا يحاولون استراق السمع إليه من خلف الجدران كلما أمكنهم ذلك.

ومن الكلمات التي تصنع دلالات جديدة في القرآن الكريم كلمة (حبطت)، وهي في ذاتها صورة معبرة ومقالة وافية. والحُبوطُ والحُباطُ انتفاخ بطن الدابة -والإنسان أيضاً- من كثرة الأكل، أو من أكل ما لا يوافقها، فيراها الإنسان سمينة وهي في الحقيقة مريضة على وشك النفوق والموت. وكذلك أعمال الكافرين، أو الأعمال التي لا يبتغى بها وجه الله، يراها المرء من بعيد، أو لا يعلم حقيقتها، فيظن أنها أعمال مفيدة وهي في الحقيقة أعمال حابطة لا وزن لها عند الله، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا.﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٦)

- ومن الكلمات المعبرة -أيضاً- كلمة (الأنفال) التي تعني الزيادات؛ لأنها جمع نَفْل، وهو ما شُرِعَ زيادة على الفريضة والواجب، فكأن الله -عزَّ وجلَّ- عندما سمى غنائم يوم بدر أنفالاً يريد أن يقول للناس جميعاً: إن الجيش المسلم يخرج لإعلاء كلمة الله، وهو هدفه الأول والأهم، فإن غنم شيئاً بعد أن ينتصر ويحقق هدفه فإنما هذه الغنائم أنفال على الهدف الأول. يدل على هذا دلالة واضحة أن الله -عزَّ وجلَّ-

سماها في أول السورة أنفالاً؛ إذ قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (الأنفال: ١) وعندما أراد أن يُعلِّم الناس كيف توزع على مر الأزمان قال تعالى في السورة نفسها وفي الآية(٤١): ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ .﴾

٤. في الجمل والتراكيب:

تقوم الدراسات الدلالية على النظر في الجمل والتراكيب، وتتشكل هذه الجمل والتراكيب اللغوية في أنماط لغوية متعددة، ولكل نمط من أنماط اللغة دلالات بيانية ومعانٍ بلاغية، أفاضت كتب البلاغة في الحديث عنها.

ومن الأنماط اللغوية الشائعة في الدراسات الدلالية: اختلاف صيغ الأفعال بين ماض ومضارع وأمر، واختلاف صيغ الأفعال بين مبني للمعلوم ومبني للمجهول، واختلاف صيغ الأفعال بين لازم ومتعدٍ، ومجرد ومزيد، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف والذكر، والإفراد والتثنية والجمع، وتنوع الصيغ الصرفية، وإعمالُ المشتقات عملَ الفعل، كعمل اسم الفاعل واسم المفعول وصيغ المبالغة والصفة المشبهة وأفعل التفضيل والمصدر واسم المصدر.

ونظراً لاتساع البحث أود أن أتعرض لبعض الأنماط السابقة بأمثلة على كل منها، تاركاً المجال للتدبر فيها، وهي تشكل لغة داخلية تفيض بالدلالات والتأثير في نفوس الناس.

أ. اختلاف صيغ الأفعال بين لازم ومتعد، ومجرد ومزيد:

كُتبتْ في العصر الحديث دراسات كثيرة في البيان القرآني التي تعرضُ لتنوع صيغ الأفعال بين لازم ومتعد، مثل: نزل وأنزل ونزّل. وبين ذهب، وذهب به، ومثل أنبأ ونبّأ، ومثل مَهِّلْ وأَمهِلْ، وغيرها. ومن الآيات الكريمة التي توضح بعض دلالات هذه الأنماط بين الأفعال، قوله عزَّ وجلَّ في سورة التحريم: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ

حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ؛﴾ (التحريم: ٣) إذ تنوعت صيغ الفعل في هذه الآية الكريمة بين: نبّأ والفعل أنبأ.

- فلما نبأت به.
- فلما نبأها به.
- قالت من أنبأك هذا.
- قال نبأني العليم الخبير.

ولقد درستُ هذا الفعل ومشتقاته واستعماله في القرآن الكريم، فوجدتُ أن الفعل (نبّأ) على وزن (فَعّل) يستخدم عندما يفاجئك النبأ دون أن تطلبه أو تبحث عنه، أما الفعل (أنبأ) على وزن (أفعل) فيكون عندما تطلبه وتبحث عمن يخبرك به.

ب. إعمال المشتقات:

تعملُ المشتقات كلها، والمصدرُ واسمُ المصدر، عملَ الأفعال، بل إن اسم الفاعل يكاد يكون فعلاً لكثرة ما يقوم بعمل الفعل. وقد عدّه الدكتور تمام حسان رابع الأفعال العربيّة.[٢٧] وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي عمل فيها المصدر واسم المصدر واسم الفاعل والمفعول وسائر المشتقات عملَ الفعل. وقد كان لهذا العمل دلالة تزيد على عمل الفعل لو استخدم مكان أي منها. انظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (آل عمران: ٣٧) وكلمة (نباتا) هي اسم مصدر للمصدر الصريح (إنبات) وكان المتوقع أن يكون القول (وأنبتها إنباتاً حسناً). وفي هذا القول تكون صفة الحسن لعملية الإنبات فقط، أما قوله تعالى (وأنبتها نباتاً حسناً)

[٢٧] حَسّان، تمام. **اللغة العربية مبناها ومعناها**، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

فيدل على أن صفة الحسن تشمل الإنبات، وتطور النبات الذي حصل بهذا الإنبات؛ حتى يكون الحسن شاملاً له حتى النهاية.[٢٨]

ت. التقديم والتأخير:

هذا باب عجيب من أبواب البيان، وقد كُتبتْ فيه بحوثٌ وكتب كثيرة لا ريب، وهو يعني تقديم ما حقه التأخير وفق أصول اللغة، وقواعد النحو العربي، أو تأخير ما حقه التقديم. فالمبتدأ مقدم في جملته على الخبر، والفعل مقدم على فاعله وعلى مفعوله. وهذا تقديم واجب إذا لم تكن في الجملة قرائن لفظية أو معنوية تبين المبتدأ من الخبر أو الفاعل من المفعول. فإذا قلت: أخي صديقي مثلاً، فإنه يجب أن يكون (أخي) هو المبتدأ؛ لأنه لا يدفع اللبس إلا اتباع قواعد اللغة. وكذلك إذا قلت: أكرم مصطفى مرتضى، أو زارت سلمى ليلى، فإن مصطفى هو الفاعل، وليلى هي الفاعل، بخلاف ما لو قلت مثلاً: أخي الأصغر عليٌّ أو قلت: أكرمتْ مصطفى ليلى، فإن الأمر واضح ولا يجب فيه شيء.

وفي القرآن الكريم كان التقديم والتأخير لغة ثانية تدخل من ثنايا التركيب، انظر إلى قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ (الأنعام: ١٠٠) فقد تقدم فيه الجار والمجرور على المفعول به، وتقدم المفعول به الثاني على المفعول به الأول، وهذا تركيب عجيب، والأصل فيه (وجعلوا الجن شركاء لله). والفرق كبير بين الدلالتين؛ فالتعبير الإلهي يدل على استهجان أمر الشرك من أساسه، فلا يجوز أن يكون لله -عزَّ وجلَّ- شركاء أياً كانوا. أما قول البشر فيعني استهجان أن يكون الجن شركاء لله، ولكن

---

[٢٨] تدبر الآن الآيات الكريمة الآتية:
- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٨)
- وقال تعالى: ﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ (الكهف: ١٨)
- وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء: ٢٣)
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠)

غيرهم لا يدخل في هذا الاستهجان، وهذا معنى محدود ضيق، في مقابل التعبير الإلهي الرحب الذي لا حدود لبيانه.[٢٩]

ث. التعريف والتنكير:

وهذا –أيضاً– باب لطيف من أبواب البلاغة والبيان، يدل على أن التنكير – أحياناً– يكون أوسع دلالة من التعريف، وأنه يؤدي معنى لا يؤديه غيره.

تأمل في قول الله –عزَّ وجلَّ– في الآيتين التاليتين:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ .﴾ (البقرة:١٢٦) وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ .﴾ (إبراهيم: ٣٥)

إن التنكير في الآية الأولى منهما: (اجعل هذا بلداً آمناً) يعرض صفحة من التاريخ؛ إذ إنه كان عندما وضع إبراهيم –عليه السلام– زوجه هاجر وولده إسماعيل في مكة امتثالاً لأمر ربه، ومكةُ يومئذ لا بناء فيها، ولا نبات ولا أي أثر للحياة، ولم تكن بلداً قائماً ولم تكن الكعبة ظاهرة على وجه الأرض.

أما الدعاء في الآية الثانية فقد كان عند عودة إبراهيم عليه السلام من بيت المقدس إلى مكة المكرمة مرة أخرى؛ إذ وجدها بلداً عامراً، فيه أناس وحياة، وقد كبر ابنه إسماعيل، وتزوج من قبيلة جرهم التي سكنت مكة، وكان ماء زمزم قد نبع بين قدمي إسماعيل، عليه السلام، وهو طفل صغير؛ ولذلك دعا إبراهيم –عليه السلام– أن يحفظ هذا البلد القائم وأن يجعله آمناً.[٣٠]

---

[٢٩] تدبر الآن الآيات التالية:
– قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠)
– وقال تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ (طه: ١٨)
– وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨)
– وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ (الإسراء: ٢٣)

[٣٠] يمثل هذا الإحساس بأثر التنكير في سياقه تأمل في قول الله عز وجل: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .﴾ (البقرة: ١٧٩)

ج. الحذف والذكر:

لا أجد أجمل من حديث عبد القاهر الجرجاني عن هذا البـــاب أجعلـــه فاتحـــةً للحديث عنه؛ إذ يقول: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شـــبيه بالسحر، فإنك ترى به تركَ الذكر أفصحَ من الذكر، والصمتَ عـــن الإفـــادة أزيـــدَ للإفادة، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر."[٣١]

ولعل أبلغ مثل على فصاحة الحذف في القرآن الكريم هو في تحليل قوله عز وجـــل "بسم الله الرحمن الرحيم" وهي أول آية في سورة الفاتحة أي: في القرآن الكريم. وهي تتألف من جار ومجرور لا بد أن يكون له متعلق، فإنْ كان متعلّقُهُ اسماً كانـــت جملـــة اسمية، مثل: قراءتي باسم الله، أو سَفَري باسم الله. وإن كان متعلّقُها فعلاً فهي جملـــة فعلية، مثل: اقرأ باسم ربك، أو كُلْ باسم ربك، أو ادرس باسم ربك. وقد شاء الله – عزَّ وجلَّ– ألاّ يذكر لها متعلقاً محدداً، اسماً أو فعلاً؛ حتى تكون متعلقة بكل فعل وبكل قول يقوم به الإنسان أو يقوله على مر الأزمان وتعدد المكان.

ومثل هذا يقال في حذف المفعول به، من أول آية نزلت على النبيّﷺ، وهي قوله عز وجل: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١) فقد حذف المفعول به؛ حتى يدخل كـــل شيء في الكون ضمن ما خلق الله عزَّ وجلَّ. أما تحديدُ متعلّقِ هذا الجار والمجـــرور في بعض آيات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: "فسبح باسم ربك العظيم" أو "اقرأ باســـم ربك الذي خلق" فهذا خاص بالسياق الذي ترد فيه الآية. ومواطن الحذف في القرآن الكريم كثيرة جداً، وقد فصلتْ فيها القولَ كتبُ البلاغة قديماً وحـــديثاً. ويكفـــي أن أذكّرَ برأي ابن جني في كتابه الكبير الخصائص؛ إذ خصص فيه باباً للحـــديث عـــن الحذف في اللغة العربية سمّاه: بابٌ في شجاعة العربية – الحذف في اللغة. وعدّ هنـــاك عشرات الأمثلة على جمال العربية في هذا الميدان وشجاعتها. قال في بداية هذا الباب:

[٣١] الجرجاني، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٩٦١م، ص٩٥-٩٦.

"قد حذفت العربُ الجملة والمفرد، والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضربٌ من تكليف علم الغيب في معرفته."[٣٢]

ح. الإفراد والتثنية والجمع:

تبدأ بعض آيات القرآن الكريم بالحديث عن مفرد، ثم تلتفت فجأة نحو الجمع، وهذا يدل على أن الفرد المسلم يصنع المجتمع، وأن المجتمع المسلم هو أفراد ملتزمون بالإسلام. ولا يكاد يوجد فاصل بين حدود الفرد والمجتمع، خلافاً للمذاهب الدنيوية التي يمجد بعضها الفرد على حساب المجتمع، ويمجد بعضها المجتمع على حساب الفرد؛ حتى لا يكون للطرف المنبوذ في أي منها قيمة أو اعتبار.

تدبر قول الله -عزَّ وجلَّ- في سورة البقرة ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١١-١١٢) ففي الآية الثانية وردت خمس ضمائر للمفرد ثم تحوّل الضمير إلى الجماعة، وهذا له دلالة كبيرة؛ لأن هذا الفرد بصفاته وأخلاقه هذه هو الذي يصنع المجتمع الآمن السعيد.

وتأمل قوله تعالى في سورة النساء، ولاحظ كيف ينقلب الحديث في حالة الإيمان إلى الجماعة، ويظل الحديث في حالة الكفر مفرداً، يقول الله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ .﴾ (النساء: ١٣-١٤)

خ. تنوع الأساليب في القرآن الكريم:

تتنوع أساليب التعبير في القرآن الكريم، ويرتبط الأسلوب بالمعنى ارتباطاً وثيقاً، ويستخرج القرآن الكريم بوساطة تنوع أساليب التعبير فيه الطاقة الهائلة التي تختزنها

[٣٢] ابن جنّي، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**، القاهرة: طبعة دار الكتب، ١٩٥٥م، ج٢، ص٣٦٠-٣٨١.

اللغة في ثناياها. وفي القرآن الكريم نجد أساليب كثيرة في التعبير، منها: أسلوب الأمر، والنهي، والاستفهام. والنداء، والتمني، والرجاء، والتعجب، والقسم.

ولكل أسلوب من هذه الأساليب، بكل تأكيد، خصائصه وقواعده وأحكامه وصيغه التي تفصّل القول فيها كتب النحو واللغة والبلاغة، ولكن هذه الأساليب ما تزال بحاجة إلى دراسات خاصة واسعة تبين حقيقتها ودلالتها في القرآن الكريم.

ففي القرآن الكريم يتجاور الأمر والنهي، ويلتقي الاستفهام والنداء، والاستفهام والتوكيد، والتمني والرجاء، وغير ذلك من الأساليب في بيان بديع، وإعجاز شامل لا يملك الإنسان إلا أن يسبح بحمد الله الذي أنزل القرآن الكريم، وعلم الإنسان أسراره ووسائل الكشف عن دقائق التعبير؛ فيه حتى يشهد بعظمة الله وكمال بيانه.

يقول الله -عزَّ وجلَّ- في سورة القصص في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ.﴾ (القصص: ٧)

في الآية الكريمة أَمرٌ ثم أَمرٌ ثم نَهيٌ ثم نَهيٌ. وفي الآية الكريمة أَمرٌ إلى والدة أن تُلقيَ ولدها في اليمِّ إذا خافت عليه من القتل. فأيُّ أمر هذا؛ وأيُّ بيان؟ وكيف يكون موقف المرء من القرآن الكريم عندما يقرأ هذا الأمر فيه، ويعلم يقيناً أن هذا الأمر الغريب قد حصل فعلاً في زمنه، وأن الله -عزَّ وجلَّ- حقق وعده لهذه الأم، وردّ ولدها إليها وجعله من المرسلين.

وفرقت آيات القرآن الكريم بين التمني والرجاء كما فعلتْ من بعدُ كتبُ البلاغة، فالتمني للأمر البعيد الذي لا يتحقق أبداً أو يصعب تحققه، أما الرجاء فهو للأمر المعقول الذي يسهل تحققه إذا توفرت دواعيه.

وفي القرآن الكريم تنوعت أساليب القسم، فأقسم الله -عزَّ وجلَّ- بما شاء من خلقه؛ إذ أقسم بالشمس والقمر والضحى والليل والفجر والعصر وغير ذلك. وما زال القسم في القرآن الكريم بحاجة إلى دراسة متخصصة أو دراسات، تبين الصلة الوثيقة

بين المقسم به والمقسم عليه. كأن نقول: ما العلاقة بين العصر وإن الإنسان لفي خسر، وبين الضحى وما ودعك ربك وما قلى. إن هذا باب بِكْر ما زال ينتظر من يقدم أسرار التعبير القرآني في القسم للناس. ثم إن القرآن الكريم فرّقَ بين القَسَم والحَلف، فجعل الأول في الصدق أو في تصرفات بعض الناس الذين يريدون إيهامَ الآخرين بأنهم صادقون، فيقسمون، ويكون قسمهم هذا دليلاً على حرصهم على الظهور بمظهر الصدق في موقف الحِجَاج أو الجدل مع الآخرين. أو يكون تصويراً لاعتقادهم الراسخ بشيء يظنونه حقيقة وهو عند الحَكَم الجاد ليس كذلك. مثال هذا قوله تعالى حكاية عن المكذبين الذين لا يؤمنون بالبعث، ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ.﴾ (النحل: ٣٨) فهم يعتقدون هذا، فأقسموا عليه، وبين القرآن الكريم باختياره (أقسموا) دون (حلفوا) زيف اعتقادهم، والحلف في مجال الكذب وصفة الكاذبين، ولهذا دلالته الاجتماعية، التي ينبغي أن تدرس من واقع حياة مَنْ نزلت فيهم الآيات التي استخدمت صفات الحلف.

ووردت في القرآن الكريم صور كثيرة من صور التعجب السماعي والقياسي، ومن صور المدح والذم، ومن صور التوكيد، وكل ذلك يحتاج إلى دراسات واسعة. وقد عملت الآن بعض الجامعات على توجيه طلابها في الدراسات العليا إلى الاهتمام بأساليب التعبير المتنوعة في القرآن الكريم، وأحسب أن هذا أمر جيد، ينبغي أن ننظر إليه، وأن نسانده بمزيد من الحرص والاهتمام.

رابعاً: خصائص البيان القرآني

إن شواهد البيان القرآني كثيرة متنوعة، ويمكن عند التأمل الجاد أن نستخلص عدداً من المزايا للتعبير القرآني وبيانه العالي، نجملها فيما يلي:

١. البيان القرآني بيان متكامل، يلتقي فيه الشكل والمضمون في بناء واحد متماسك لا يمكن الفصل بينهما، وهذا رد على هؤلاء الذين شغلوا الناس بقضية اللفظ

والمعنى،[٣٣] وهو –أيضاً– ردّ على من يرى أن الإعجاز القرآني هو في بيانه وليس في مضمونه.[٣٤] ولا أدري كيف يمكن الفصْلُ بين التعبير والمضمون في أيّ نصّ، قرآناً كان أو غير قرآن، أدبياً أو علمياً أو غير ذلك. إن أيّ صوت يصدر عن أي مخلوق من مخلوقات الله فيه شكل ومضمون، فيه لفظ ومعنى. وانظر إلى دلالة كلمة (لفظ) في القرآن الكريم؛ إذ يقول الله عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨) في مقابل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٣-٤) فاللفظ هو كل صوت يصدر عن الكائن الحيّ، والنطق هو النطق الإنساني يحمل دلالة واعية سامية عالية ملزمة لقائلها. فالبيان القرآني بناء متكامل يلتقي فيه اللفظ والمعنى في بناء ممتزج امتزاج أعضاء الجسم الإنساني بعضها ببعض. ومضمون البيان القرآني هو التشريع الإلهي؛ ولذلك فهو بيان ملتزم، إضافة إلى أنه في غاية الجمال في التعبير والتأثير.

٢. البيان القرآني بيان فريد، جديد، خالف عن كل ما يعرفه العرب وغير العرب من فنون القول. فليس هو بالشعر، ولا هو بالنثر، ولا هو بالسجع، ولا هو بلغة الكهان، ولا هو بأي شيء مما كان العرب، بل مما كانت الأمم، تعرفه في آدابها وفي فنونها الاجتماعية. والنظر المتدبر في القرآن الكريم، في أصواته، وكلماته، وآياته، يرى ذلك بكل اليقين. ثم انظر إلى تصرّف القرآن الكريم من خلال هذا الشكل المتفرد في أنماط اللغة وأحكامها النحوية التي عُرِفَتْ، بل وضعت بعد نزوله، وقد كان القرآن الكريم الأساس الأول لبنائها وهندستها. انظر إلى السور الكثيرة الطويلة تنتهي بفعل مضارع مرفوع بثبوت النون، تتداخل معها فواصل آيات تنتهي بجمع المذكر السالم المرفوع أو المنصوب أو المجرور. كسورة البقرة وآل عمران والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة وغيرها، وتلحظ في سياق هذه الآيات فواصل أخرى قليلة تأتي على

[٣٣] بدوي، أحمد أحمد. **أسس النقد الأدبي عند العرب**، ط٢، القاهرة: مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٠م، ص٤٧٧ وما بعدها. وفيه بحث مستفيض عن قضية اللفظ والمعنى والآراء التي قيلت في هذه المسألة.

[٣٤] الخالدي، **إعجاز القرآن البياني**، مرجع سابق، ص٦٥ وما بعدها.

نمط لغوي و حكم إعرابي غير ذلك، فلا تحسّ بالتغير في الأداء العام، ولا يتغير عليك الإحساس بجمال ما تسمع أو تقرأ، وتكامله وانسجامه. ثم تأتيك سور عديدة كل فواصل آياتها منصوبة، وهذا أمر عجيب، اقرأ النساء، واقرأ الكهف، واقرأ مريم، والأحزاب، والجن، وغيرها. وليحاول امرؤ أن يجعل مقالة قصيرة له على نسق واحد من أحكام النحو، إن هذا خارج عن نطاق القدرة الإنسانية.

٣. البيان القرآني بيان صادقٌ الصدقَ كله، محكمٌ الإحكامَ كله. ففيما يرويه من معانٍ ودلالات أو أخبار السابقين واللاحقين، أو أحكام الدنيا والدين، لن تجد فيه إلا الصدق الصراح، سواءً فيما أخبر به أو أمَرَ به، وهذا الأمر هو الذي قهر الأعداء، وغلب المعارضين والمنكرين وأهل الإلحاد. وكم حاول أعداء الله على مرّ القرون أن يدسّوا في القرآن الكريم ما يثير حوله الشكوك والاضطراب، فخاب رأيهم، وضاع مسعاهم. وفي العصر الحديث أصبحنا نجد في بعض المواقع من الشبكة العنكبوتية آياتٍ مقلدة لآيات القرآن الكريم، ومقطوعات مختلفة يسمونها (سوراً) بقصد إفساد أذواق الناس وزعزعة إيمانهم، ومحاولة إضعاف ثقة الناس بالقرآن الكريم، وبخاصة في هذه الأيام التي قل ما نجده فيها من حفظة القرآن وعلماء اللغة، مثلما كنا نجد في القرون الماضية، في عصر ازدهار اللغة العربية وانتشارها.

إن المحاولات المستميتة، والدعوات المستمرة لتشويه اللغة العربية وإبعادها عن أهلها، وإبعاد أهلها عنها، هي جهود خبيثة حابطة لمحاولة النيل من صدق القرآن الكريم وكماله. وهذا هو معنى الالتزام الذي ينبغي على الناس أن يستمدوه من الصدق المطلق في القرآن الكريم، ومن التزامه بالمضمون السامي الذي هو في الأصل التشريع الإلهي لكل أهل الأرض في رسالة الإسلام الخالدة.

٤. البيان القرآني مهذب راق يُعلِّم المرء كل شيء، وكل ما يتعلق بحياته في شؤونه كلها، حتى الحالات الخاصة منها، يعرضها بأسلوب رفيع، موجز، يسمو بالعواطف ولا يثير الغرائز. إن القرآن الكريم يقدّم المشاهد العديدة، والحوار الطويل بين الرجل والمرأة في أكثر المواقف خصوصية وسرية، ليلخصها بكلمة أو كلمتين، يفهم السامع منهما كل

شيء، ولا حاجة له بعدها بالتفصيلات التي لا يراد منها –في بعض الأعمال الأدبية، شعرها ونثرها– إلا إثارة الغرائز، وهياج الشباب في تخيل ما تحمله المشاهد وجمل الحوار من تصرّفات لا تغني العمل الأدبي، ولا تفيد القارئ بشيء.

تأمل في قوله الله عز وجل: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٢٣) إن في هذه الآية من الأحداث ما يمكن أن يؤلف قصة كاملة، أو رواية طويلة عندما يريد الكاتب أن يفصل القول فيما تعنيه هذه الكلمة الساحرة المعبرة (وراودته) وهي من الفعل أراد، وتفيد في صيغتها الاستمرار والحرص والإلحاح في الطلب. ثم تدبر قوله تعالى (وقالت هيت لك). ولعل هذه الكلمة أن تكون الكلمة الوحيدة في اللغة التي يمكن أن تؤدي هذا المعنى بهذا التعبير الذي لا نهاية لدلالته.

نتعلم من البيان القرآني الأدب والذوق وعفة اللسان وصفاء التعبير في كل شأن من شؤون الحياة، في أمور العمل والوظيفة، وفي الحوار بين الناس، وفي العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والسائل والمسؤول، في كل مناسبة، وفي كل بيت، وفي كل ما يلزم من شؤون الحياة في دروبها المتعددة.

٥. البيان القرآني تتنوع فيه أساليب التعبير بين السرد والوصف والقصة والمثل والحوار والعرض، وكل ما يتخلل ذلك من أساليب التعبير عن مشاعر الإنسان في المواقف المختلفة من: مدح، وهجاء، وتعجب، وتهكم، ونداء، واستفهام، وأمر، ونهي، وما إلى ذلك من أشكال التعبير، وكل ذلك يجري في نسق منتظم، ومستوى ثابت في الفصاحة والبيان، وإن كل هذه الأشكال الأدبية، كما تسمى في النقد الأدبي، تعمل على إبلاغ التشريع الإلهي في أكمل تعبير وأجمله. فالقصة – مثلاً– أسلوب من أساليب الدعوة، وهو أمر ملحوظ في القرآن الكريم، ولو تتبعنا الآيات الكريمة التي وردت فيها هذه المادة لوجدنا أنها تدل على أن القصة هي أسلوب في الدعوة، ومنهج من مناهج التبليغ، يقول الله عز وجل: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦) ويقول سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ .﴾ (الأنعام: ٥٧)

وقد نفيد من هذه الملاحظة أن الأدب بكل فروعه وفنونه يمكن أن يكون أدباً ملتزماً يتناول كل شأن من شؤون الحياة ولكن بالصدق الصراح، والتعبير السامي، والفن الرفيع الذي نتذوقه ونتعلمه من آيات القرآن الكريم.

٦. البيان القرآني قام في البداية على السماع، ومن المعروف أن بداية الوحي كانت في غار حراء حيث كان النبيﷺ "يتحنث فيه الليالي ذوات العدد... فجاءه الملك، فقال: "اقرأ"، فقلت: ما أنا بقارئ... ... فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق..."[٣٥] وهذا يدل على أن قراءة الاستماع هي إحدى أنواع القراءة، على الرغم من أن كثيراً من أهل التربية لا يعدونها كذلك، ويكتفون بالقراءة الجهرية والقراءة الصامتة، ويدل –أيضاً– على أن الاستماع الصحيح أساس لتعلم القرآن وقراءته كما أنزل. وأنه إذا لم يقرأ كما أنزل، وكما استمع إليه رسول اللهﷺ فإنه يتشتت في البلاد، وتتغير أصواته مع الزمن، وينتهي أمره، ولهذا فإنه يجب الحرص على تلاوة القرآن الكريم وترتيله كما أنزله الله عز وجل، وهذا الأمر مؤكد في قوله تعالى ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا.﴾ (المزمل: ٤) وهذا أمر إلهي كبير؛ لأنه يمثل المنهج الإلهي في حفظ القرآن، ولولا هذا الترتيل الإلهي الموحد لقرأ كل امرئ القرآن بلهجة قومه، وبطريقتهم في النطق. ولّما كانت طرائق النطق عندهم مختلفة، فإن قراءة القرآن ستكون مختلفة من بلد إلى آخر، ثم لا تلبث أن تصبح لهجات لا صلة لإحداها بالأخرى، ولا يفهمها أحد من غير أبنائها.

ولذا كان تعلم اللغة العربية بوساطة الإسماع الصحيح والاستماع المنظم من أجلّ الفوائد التي يمكن أن يقوم بها أي مركز تعليمي أو أي مؤسسة تربوية تعمل على تنشئة الأجيال.

خاتمة:

قدم البحث صورة عملية لكيفية تعلُّم البيان، من خلال بعض الأمثلة من آيات القرآن الكريم، واستخدام بعض الأنماط اللغوية التي وردت فيه. إن الله –عزَّ وجلَّ–

[٣٥] **تفسير القرطبي**، مرجع سابق، ج٢٠ ص١١٨.

علمنا البيان، كما ذكرت سورة الرحمن، من خلال إنزال كتابه العظيم في صورة قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وهذا القرآن نزل بالصورة البيانية المثلى التي يمكن أن يكون عليها أيُّ نصّ بلسان عربيّ مبين. والقرآن الكريم – بهذه الصورة البيانيّة- هو أفصح كلام على وجه الأرض، وأنه يتحقق باستدخال الأنماط اللغوية المختلفة في صور متنوعة من التركيب، واستخراج كل ما يمكن من أسرار التعبير اللغوي.

وقد حاول البحث توضيح الدلالة العامة لتعبير (البيان القرآني) وأنه يشمل استخدام الأنماط اللغوية المختلفة التي تبرز الدلالات والمعاني المختزنة في الآيات القرآنية بتعبير جميل مشرق، فضلاً عن إعطاء فكرة واضحة عن تنوع أساليب البيان وتعدد الأنماط اللغوية التي تسهم في إبراز أسرار البيان والإعجاز القرآني.

وأظهر البحث بيان الارتباط الوثيق بين مصطلح (الكتاب) ومصطلح (القرآن) في القرآن الكريم، وهما في الحقيقة شيء واحد، إلا أن الكتاب يحمل دلالة التشريع والمضمون والمعاني، وأن القرآن يحمل أساليب التعبير الفني المتفوق عن تلك الدلالات والمعاني وهو ما أعجز العرب أن يأتوا بمثله أو بسورة أو بآية واحدة من مثله. فالكتاب قرآن من حيث التعبير، والقرآن كتاب من حيث المضمون، ولعل هذا يقدم الصورة الكاملة لتلاحم اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون كما يقولون في مجال النقد الأدبي. وهي الصورة السامية التي لا يمكن لبشر أن يصل إليها، ولكنها تظل تحفز الأدباء على محاولة محاكاتها لتظل عاملاً من عوامل الإبداع الأدبي على مر العصور.

وقدم البحث نماذج عملية لطريقة قراءة القرآن الكريم، واستخراج ما ينكشف للمرء من أسرار التعبير، وارتباطه بالمعاني، ولعل هذا أن يكون أساساً لتشكل أسلوب جديد في قراءة القرآن وتدبره؛ إذ ليس المعول على عدد مرات قراءة القرآن وختمه، والوقت الذي يتم فيه ذلك، بل المعول على كيفية قراءة القرآن الكريم وتدبر آياته، وفهم معانيه، وتلمس شواهد إعجازه.

وما زال الباب مفتوحاً على مصراعيه لدراسة الكثير من الظواهر في القرآن الكريم، مثل دراسة: أثر حروف المعاني في بيان الدلالة القرآنية ومقارنة ذلك بأثرها في بيان المعنى في بعض النصوص الأدبية المعتمدة كالمعلقات – مثلاً–.

وإجراء دراسات واسعة حول الأساليب الواردة في القرآن الكريم، وهو مجال ما يزال جديداً لم يتسع فيه القول. وإذا مثلنا بأسلوب القسم، يمكن وضع الأمثلة الآتية لإجراء دراسات للإجابة عنها:

– لماذا تنوعت أساليب القسم في القرآن الكريم؛ كالقسم بالله، والقسم بكلمة (لعمرك)، والقسم بما خلق الله من مظاهر الخلق والكون، مثل: الضحى، والليل، والعصر، والفجر، وبما تعلمون وما لا تعلمون، وغيرها؟

– ما العلاقة بين القسم والمقسم عليه، وهذا بحث ينتظر جهود المخلصين المتخصصين بالدراسات القرآنية. كالعلاقة بين الضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى، وكالعلاقة بين العصر وإن الإنسان لفي خسر. وكالعلاقة بين القسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إن هذه كنوز من المعرفة تنتظر المفاتيح التي تخرجها إلى نور البحث والعلم والحقيقة.

– ويمكن أن يقال مثل هذا في أساليب الأمر وتنوع صيغه ودلالة كل صيغة من صيغ الأمر، ولِمَ استخدمت هذه الصيغة هنا وتلك الصيغة هناك، وكذلك يقال في أسلوب النهي وأسلوب الاستفهام وأسلوب النداء وغيرها.

– وما زالت أساليب الحذف والذكر، والأحاديث عن حروف الزيادة في القرآن ودلالاتها، وفصل المقال في معنى الزيادة التي رفض كثير من الباحثين الاعتراف بزيادتها، وقالوا: لا زيادة في القرآن الكريم. إن هذه مجالات كثيرة تنتظر الباحثين.